فى ميدان الترجمة ، وهذا أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعمد فيه إلى الإيجاز فالمعانى تؤدى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها ودون أن تطول طولا يُجحف بحقوقها ، ولعلل ذلك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى الذى سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بالجمال المادى بتاتاً ، وإنما معناه أنه كان مترجماً ، وكان يسعى إلى الدقة فى الترجمة ، فلم يتوسّع فى رصف الألفاظ وبسطها ، حتى لا تخونه فى أداء معانيه . لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول ، ومع ذلك لم ينس أبداً أن يكون لفظه جزلا رصينا مصقولا ، وأن ينسقه فى حركاته وأوضاعه تنسيقاً مبينا ، لا يخفى أى شىء مما يحمله معنى أو صورة . وقد ظلت القرون التالية إلى قرننا الحاضر تتداول كثيراً مما ترجمه ، وخاصة كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير . وهذا الصمودُ للتداول الطويل مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق .

٤

سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته

إذا تركنا عصر ابن المقفع وتقدمنا إلى عصر هرون الرشيد التقينا بسهل ابن هرون ، وهو فارسى من دَسْتميسان[١] ، كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، ويعيّن الحصْرى القرية التى ولد فيها ، فيقول إنها ميسان[٢] ، واختلف الرواة فى اسم جده ، فهو فى الفهرست رامنوى أو راهبون ، وهو فى البيان والتبيين راهبونى[٣] . وهو مثل ابن المقفع لا يُعرف بالضبط متى كان مولده ، أما وفاته فكانت فى عام ٢١٥ للهجرة[٤] . وقد ترك موطنه أول الأمر إلى البصرة حيث

---

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ١٧٤ .
(٢) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٥٢ .
(٤) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١/٢٦٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخرّج فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، فكتب ليحيى بن خالد البرمكى ، وله أشعار فى مديحه[١] ، ويقال إنه خلفه على الدواوين[٢] ، ويظهر أنه ظل يشتغل فيها لعهد الأمين[٣] . ولما ولى المأمون الخلافة قدّمه إليه الفضل بن سهل فأعجب به ، وجعله خازناً بدار الحكمة[٤] ، وظل بها إلى أن توفى .

ودلائل كثيرة تدل على أنه كان مثقفاً ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره ، وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسى إلى العربية[٥] ، ولكن أهميته لا ترجع إلى ما تَرْجم ، بل ترجع إلى ما صنّف وألّف ، ومن أجل ذلك كان يختلف عن ابن المقفع ، فابن المقفع أهميته الأولى فى تاريخ النثر العربى إنما ترجع إلى أنه كان مترجماً وأنه مرّن أساليب العربية على حَمْل الثقافات الأجنبية ، أما سهل فكان أديباً تبدو شخصيته فيما يؤلف ويدبّج ويحبّر .

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، ويقول صاحب الفهرست إن له فى ذلك كتباً كثيرة[٦] . وعلى نحو ما اشتهر بالشعوبية اشتهر بالحكمة ، حتى لقبوه « بزرجمهر الإسلام »[٧] ووصفه الجاحظ فقال : « كان سَهْلٌ سهلا فى نفسه ، عَتيق[٨] الوجه ، حسن الشّارة ، بعيداً من الفَدامة[٩] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنُّبْل قبل التكشف »[١٠] . ويلاحظ ابن النديم أن الجاحظ كان يفضّله ، ويصف براعته وفصاحته ويَحْكى عنه فى كتبه[١١] ، وقد صرح مراراً بأنه كان يلقاه[١٢] ، وروى كثيراً من نوادره ، فمن

---

(١) الحيوان ٣/٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ والبيان والتبيين ٣/٣٥٢ .
(٢) شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٦ .
(٤) معجم الأدباء ١١/٢٦٧ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .
(٧) زهر الآداب ٢/٢٥٨ وسرح العيون (طبعة المطبعة الوطنية) ص ١٣٢ .
(٨) عتيق الوجه : جميل .
(٩) الفدامة : العى .
(١٠) البيان والتبيين ١/٨٩ .
(١١) الفهرست ص ١٧٤ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٢٣٨ والحيوان ٧/٢٠٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك أنه تنذر على أحد جيرانه ، وهو صغير يختلف إلى الكتاب ، فقال :

نُبِّيتُ بَغْلَك مبطوناً فرغتَ له فهل تماثل أو نأتيك عُوَّادا (١)

ويدل هذا على أنه كانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثته ، وتُرْوى له فى ذلك طرائف كثيرة ، منها أن رجلا لقيه فقال له : هبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ؟ قال : درهم ، قال سهل : « لقد هَوَّنْتَ الدرهم ، وهو طائعُ الله فى أرضه لا يَعْصى ، وهو عُشْرُ العشرة ، والعشرة عُشر المائة ، والمائة عُشْرُ الألف والألف دِيَةُ المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هوّنته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم »(٢) وقال دعبل الشاعر : « أقمنا عند سهل بن هرون ، فلم نَبرح ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه ، قال : يا غلام ! ويلك غَدَّنا ! قال : فأتينا بقصعة (بصفحة) فيها مرق ، فيه لحم ديك هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها ، لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثِّر فيه الأضراس ، فاطّلع فى القصْعة وقلّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلّب جميع ما فى القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك ، فبقى مُطْرِقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به . قال سهل : ولم رميت به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمْقُتُ من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ؟ ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطِّيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس ، وفيه الحواس (الخمس) ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرّك به ، وعينه التى يُضْرب بها المثل ، يقال : شراب كعين الديك (فى الصفاء) ودماغه عجيب لوجع الكُلْيَة ، ولم أر عظْماً قط أهشّ تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله . أما علمتَ أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ، انظر أين هو ، قال :

---

(١) الحيوان ٣/٦٦ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، والله حسيبُك»[١] . ويُرْوى أن أبا الهُذَيْل العلاَّف المتكلم المعروف طلب إليه رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به ، فكتب له كتابًا ، وذهب به إلى الحسن ، فلما فَضَّه أغربَ فى الضحك ، إذ وجد فيه هذه الأبيات :

إن الضميرَ — إذا سألتُك حاجةً — لأبى الهُذَيل خلافُ ما أُبْدى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له — حبْل الرجاء بمخلف الوَعْد
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جَدِّه — وعَنائه فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ
وإن استطعت له المضرَّة فاجتهد — فيما يضرُّ بأبلغ الجَهْدِ

فلما راجعه أبو الهذيل قال له : أين عَزَبَ عنك الفهم؟ أما سمعت قولى: إن الضمير خلاف ما أبدى ؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا »[٢] . وقالوا إن المأمون انحرف عنه ، فدخل عليه يومًا ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إنك ظلمتنى وظلمت فلانًا الكاتب ، فقال له : ويلك وكيف؟ قال : رفعته فوق قَدْره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلمًا ، قال: كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هُزؤٍ وأقمتنى مقام رحمة ، فضحك المأمون ، وقال له: قاتلك الله ! ما أهجاك ! »[٣] . وقَصُّوا عنه أنه خاطب بعض الأمراء، فقال له: كذبت ، فقال : أيها الأمير ! إن وجه الكذّاب لا يقابلك — يعنى الأمير بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله[٤] .

وكل هذه الأحاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته وخفة روحه ، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كان سهلا فى نفسه تحكم له برقة الذهن ودقته ، فهو فكه وهو لَسِن شديد العارضة . وفى لهجة لسانه وأسلوب منطقه ما يجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ ، إذ يعد امتدادًا — من بعض الوجوة — لهذا اللسان ونموًّا لهذا العقل وما طوى فيه من حجاج وجدل .

---

(١) الحيوان ٢/٣٧٤ وانظر سرح العيون ص ١٣٣ .
(٢) سرح العيون ص ١٣٤ .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٤ .
(٤) سرح العيون ص ١٣٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤

الرسائل الديوانية

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرقىّ الدولة وغربيِّها ، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذى يُشْرف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين فى سامرَّاء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى فى حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء ذواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان لهن دواوين يقوم عليها كُتَّاب ينظرون فى الدَّخْل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملا قويًّا فى نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب فى دواوين الدولة إذا أظهر نبوغًا ارتقى سريعًا ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبِّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح واليًا لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولى — فيما ولى — البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُتْقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمى بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين فى سامرَّاء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يَفِدُ عليها الشباب ، ويُخْتَبرون اختباراً دقيقًا ، فمن نجح فى الاختبار وُظِّفَ فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبِّج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالةٌ حُظْوَةً من رئيس الديوان تمَّ له سَعْده . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب فى أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرَّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألَّف لهم فى ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه فى شئون الخراج ، وأيضًا لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكِبُّون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظنُّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم فى علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفَّروا على ما تُرْجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوَّدون به ، حتى يستمدوا منه فى معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجَّه إلى العامة ولا بد أن تَفْهَم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئًا من التنميق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة لخليفة أو خَلْع أو دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاقبة بعض الجناة . وتفنَّنوا فى المقدمات وخاصة فى التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التى كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتِّبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور فى الكتابة الديوانية وأساليبها فى العصر . ومعروف أن أول كاتب نابه يلقانا فى العصر هو إبراهيم بن العباس الصولى الذى حرَّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل فى الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى . ومن كتَّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألفَ سَوْط لِمَا صَحَّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبى بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حفصة زوجى الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق[١] .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمدَ بن الخصيب ، وكان كاتبًا أديبًا ، مما جعله يَعْهد إليه بكتابة الكتب التى تَصْدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب فى الجهاد كتبه لسبع ليال خَلَوْن من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتَّجه وصيف إلى الغزو فى أرض الروم ، وفيه يقول[٢] :

« قال عزَّ وجلَّ آمراً بالجهاد مفترضًا له : (انْفِرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) . وليست تمضى بالمجاهد فى سبيل الله حالٌ لا يكابد فى الله نَصَبًا ولا أذًى ، ولا يُنْفق نفقة ولا يقارع عدوًّا ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضًا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجْر مأمول ، قال الله عزَّ وجلَّ : (ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ[٣] فى سبيل الله ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نَيْلاً إلا كُتب لهم به عَمَلٌ صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنْفقون نفقة صغيرةً ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون) . . وليس من شىء يتقرَّب به المؤمنون إلى الله عزَّ وجلَّ من أعمالهم ، ويَسْعَون به فى حَطِّ أوزارهم وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهادُ عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز فى العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وممحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبَيْضَتهم ووَقَمُوا (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة فى التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الخصيب بأنه كان كاتبًا مجيداً . واحتفظ الطبرى له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد[٤] ، نحا فيه منحى الكتاب السابق فى الصياغة .

ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحدَ الكتاب البلغاء على

---

(١) طبرى ٩ / ٢٠٠ .
(٢) طبرى ٩ / ٢٤١ .
(٣) مخمصة : جوع شديد .
(٤) طبرى ٩ / ٢٤٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ديوان رسائله ، وسنخصه بحديث مستقل فى الفصل التالى . وسرعان ما يتولى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحُذّاق الأذكياء[١] . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديبًا بارعًا ، وفى الطبرى رسالة له وجّه بها إلى عمّال النواحى حين أعطاهم المعتز الحق فى التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإن زَيْغَ الهوى صَدفَ بكم عن حَزْم الرأى ، فأقحمكم حبائلَ الخطأ ، واو ملّكتم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البَصيرة ونَفَى غَيَابة[٣] الحَيْرة ، والآن فإن تَجْنحوا للسِّلْم تَحْقِنوا دماءكم وتُرْغِدوا عيشكم ويَصْفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم[٤] ، ويُسْبِغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غُلَوَائكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فَأْذَنوا بحرب من الله ورسوله بعد نَبْذ المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شُنّت الغارات وشُبّ ضِرام[٥] الحرب ، ودارتْ رحاها على قُطْبها وحَسَمت[٦] الصوارمُ أوصال حماتها ، واستجرّت[٧] العوالى من نَهمها ، ودُعِيَتْ نزال[٨] ، والتحم الأبطال ، وكَلَحت[٩] الحرب عن أنيابها أشداقَها ، وألقتْ للتجرّد عنها قناعها . واختلفت أعناقُ الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البَغْى لتعلمُنّ أىُّ الفريقين أسمحُ بالموت نفسًا ، وأشدّ عند اللقاء بطشًا ، ولات حينَ معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنحوا للسلم) ومثل : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) و (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ،) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية ، وقد استخدم كلمة :

---

(١) الفخرى ص ١٨٢ .
(٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .
(٣) غيابة : غشاوة .
(٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم .
(٥) ضرام : وقود .
(٦) حسمت : قطعت .
(٧) استجرت : اجترت .
(٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب .
(٩) كلحت : كشرت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته فى القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزال » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أنذر » . وشىء أهم من ذلك كله واضح فى الرسالة وضوحاً بيناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرّت العوالى من نهمها . . . وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حمله وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب فى الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل فى دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك[1] ، وله كتاب فى التنويه بخليفة وخطابته فى عيد الفطر . ولا نرتاب فى أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة فى أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول[2] :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالتْ فى كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وَلِيَهُ الله به فى مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وفّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلل فى طاعته والاجتهاد فى شكره والمناصحة فى مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . مَنّاً من الله خصّ به

---

(١) الفهرست ص ١٨٨ .
(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٠٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خليفته وأعطاه فضل مزيّته بما وفّقه له من العدل والنّصفة ، والبر والمرحمه ، والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصوّر كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن عند سعيد بن عبد الملك ، وحقًّا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية منذ القرن الثانى كما صوّر ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سَيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكْتب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحيانًا الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل ، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدىَ المعتمدُ ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمانُ بن وهب ، ويقول الفخرى[1] عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبًا وكتابة وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويُرْوى عنه أنه كان يكتب ، فى أول عهده بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف فى الليل إلى داره ناب عنه فى دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه يعرض فى الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه فى إحدى الليالى إذ طلبنى المأمون ، فقال لى : اعملْ نسخة فى المعنى الفلانى ، ووَسِّعْ بين سطورها وأحضرْها لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجتُ سريعًا وكتبت الكتاب وبيّضته وأحضرته إليه ، فلما رآنى قال : كتبت مسوّدة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بيّضته ؟ قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلىّ كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ، وقال : يا صبىّ لا أدرى من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من من حُسْن خطّك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل فى الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته فى الأغانى ، وإلا فقرة نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو[2] :

---

(١) الفخرى ص ١٨٣ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« أنا مقرٌّ معترف ، فما تُراك صانعًا بمن أعْلقك زِمامَه ، وأمكنك من قِياده ، وحكَّمك فى أمره ، معاقبًا له أو متفضّلا عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خَلا فى جَنْبها ، فالأيامُ بما تحبُّ أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوّر صياغةً جزلة رصينة ، كما تصوّر ذوقًا مهذبًا فى الاعتذار والاستعطاف ، حتى ليجعل زِمامه وقياده بيد صديقه ويحكّمه فى أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتمد أبو العباس أحمد بن ثوابة ، وهو من أعلام الكتّاب فى العصر ، وسنخصه فى الفصل التالى بحديث مستقل .

وكان يلى وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى [1] : « من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعًا فى صناعته حاذقًا ماهراً لبيبًا جليلا ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك — يا أمير المؤمنين — تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عِوَضًا ، ولا يجد أحد منك عوضًا ، وكأن الشاعر عَنَاك بقوله :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أحدٍ لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها فى لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلا [2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذى يعلم أسرار الصدور وضمائر القلوب لا تَخْفَى عليه خافية ، ولا يَعْزب عنه مثقال ذَرَّة فى السموات العُلا ، ولا فى الأرضين السُّفْلَى ، قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عدداً ، وضرب لكل شىء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذى بَرَأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفته ، على سابق علمه فى

---

(١) الفخرى ص ١٨٩ .

(٢) طبرى ١٠ / ٥٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره فى عصيان عاصيهم ، فبيَّن لهم ما يأتون وما يتَّقون ، ونهَج لهم سبلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالك الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدَّم إليهم المعذرة ، واختار لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به . وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوته أولياءه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (ليَهْلِك مَنْ هلك عن بَيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنة وإن الله لسميع عليم) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريَّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذَّن له بالنصر والتمكين ، وأيَّده بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذ به مَن استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَنْ (أدبر وتولَّى) حتى أظهر الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسله ، وقبضه مؤدِّياً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأمته ، مرضيَّاً مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلبين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلَّى الله عليه أفضل صلاة وأتمّها ، وأجلّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين » .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شىء طبيعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقّاً لم يطَّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرَّة وسَفْكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجتراءً على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعِتْرته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونَصْبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بِنَا هداكم الله ، ونحن المستحفَظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله فى هدايتكم لرشدكم وفى حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مُستحقين طاعته مُستحقبين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكِتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم على بن أبى طالب من بلاء عظيم فى إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يدٍ وهم صاغرون . وفى الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع فى جوانب من كتابته فى الحين بعد الحين . وخاصة فى توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكّره بأمره وأنه من زرعه وغَرْس يده ، فوقّع فى رقعته[1] :

« أنا — أسعدك الله — على الحال التى عهدتَ ، ومَيْلى إليك كما علمتَ ، وليس من أُنسيناه أهملناه . ولا من أخّرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكّرنا بنفسك ، وتُعْلِمَنا أمرك ، وقد وقّعت لك برزق (راتب) شهرين لتُزيح علتك وتعرّفنى مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقىَ أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع — كما هو واضح — سجع خالص . وسنرى عما قليل أن سريان السجع فى الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجرى كان أقوى منه فى الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) أخذ السجع يعم فى جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب فى الدواوين إلا وهو يتأنق فى كتابته ويبالغ فى تأنقه حتى يجعل كتابته سجعًا خالصًا . وبذلك

---

(١) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشّى بالسجع[١]، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفى مقدمتهم ابن الفرات. وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة. ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقانى، فقد كان شغوفًا بالسجع شغفًا شديداً، وتُرْوَى له فى ذلك نوادر كثيرة، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار فى العراق تأخر فى حمل غلّة إليه، فكتب إليه هذه العبارات: «احمل الغلّة، وأزِح العِلّة، ولا تجلس متودّعًا فى الكِلّة (الستر)» ولاحظ أنه قد حشر الكلة فى الكلام لاستكمال السجع، فالتفت إلى الكاتب وقال له: أفى النيل بَقّ يحتاج إلى كلل؟ فقال له الكاتب مداجيًا مرائيًا: إى والله وأى بَقّ، ومن أجله يلزم الناس الكِلل ليلا ونهاراً[٢]. ووقّع فى رسالة وجّه بها إلى بعض عمّاله: «الزمْ — وفّقك الله المنهاج، واحذر عواقب الاعوجاج، واحمل ما أمكن من الدّجاج، إن شاء الله»، وكان أن حمل العامل إليه دجاجًا كثيراً، فقال: هذا دجاج وفّرته بركة السجع[٣]. وكان الولاة يقلدون الوزراء فى هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الوالى على كُوَر الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتابًا سجع فيه، فكتب إليه وقد صَمَّم على عزله: «عوّلتَ بنا على كلام ألّفته، وخطاب سَجّعته أوجب صَرْفك عما توليته[٤]».

وكان كتّاب الدواوين على شاكلة الوزراء يَسْجعون فى كتاباتهم، وفى مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢، وكان فى باكورة حياته يكتب بين يدى عبيد الله بن سليمان بن وهب، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد، فقال فى الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها:

«وأما الوديعة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك إلى شمالك، عنايةً بها، وحياطةً عليها، ورعايةً لمودتك فيها»، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات،

---

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأخذ ينقدها له قائلا : « تفاءلتَ لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردَّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حَسُنَ موقعها منا ، وجَلَّ خطرها عندنا ، وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقُّدنا لها ، وأُنْسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن»[1] .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب فى مطالع عماله بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب فى دواوينه ، وحتى يُعْهَد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع فى كل ما يَصْدر عنه ، على نحو ما يصوّر ذلك منشورٌ وجّهه باسم الخليفة المقتدر إلى العمّال فى البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات فى وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول[2] :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنًى عنه ، ولا للملك بُدًّا منه . وكان كتّاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مذعنين بأنه الحُوَّل القُلَّب ، المحنَّك المجرَّب ، العالم بِدِرَّة المال كيف تُحْلَب ، ووجوهه كيف تُطْلب ، انتضاه[3] من غمده ، فعاود ما عُرف من حَدّه ، فنفَّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودَبَّر الأمور كأن لم يَخْلُ منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائمًا ففى الحين بعد الحين ، وكان كاتبًا بليغًا ، وفيه يقول الصولى : « ما رأيت وزيراً منذ توفّى القاسم بن عبيد الله

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر الآداب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٩٧ وانظر رسالة أخرى له مسجوعة فى الهمدانى ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سله .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفى) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطًّا ، ولا أكثر حفظًا ، ولا أسلط قلمًا ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذ بقلوب الخلفاء من ابن مُقْلة »[1] وهو صاحب الخطّ الذى تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفى إلى الوضع الذى شاع فى العالم العربى ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة فى وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعَرُضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة ، تجرى على هذا النمط[2] :

« أمسكتُ — أطال الله بقاء الوزير — عن الشكوى ، حتى تناهت البَلْوَى ، فى النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحَيْرة والتبلّد ، وعيالى إلى الهُتْكة والتشرد . وما أبداه الوزير — أيّده الله — فى أمرى إلا بحقٍّ واجب ، وظنٍّ غير كاذب . وعلى كل حال فلى ذِمامٌ وحُرْمَةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعايةَ الوزير ، أيّده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى — أطال الله بقاءه — أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنْعم بإحياء مهجته ، وتخليصها من العذاب الشديد ، والجَهْد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيبًا ، ومن البلوى فرجا قريبًا » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب فى أن أحمد مضى فى إثر أبيه يسجع فى رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله فى وصف فتح[3] :

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨ .
(٣) الهمدانى : تكلمة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« فلم يُسْفر العَجاج[1] إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجَّل ، أو جريح معطَّل ، أو أسير مكبَّل ، أو مستأمَنٍ محصَّل ، أو حقيبة ملأها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نَصَب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه . إذ غدا المثلَ الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم فى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهانى والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح . وبذلك نافس النثر الشعر فى مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتَّاب فى ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة فى الفن الكتابى ، وأيضًا فإن الشعراء أنفسهم أدْلَوْا بدِلائهم فى تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير فى نفوس من تُوَجَّه إليهم . وبذلك توفَّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتَّاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا فى النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قومًا إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضَّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودى عن أبى العباس المكى نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة فى سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، فقال له : أيكون ذلك منثوراً أو منظومًا ؟ قال : لا ، بل منثوراً[2] . فالنثر أصبح له القِدْح المعلَّى على

---

(١) العجاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٧٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا فى الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضًا لأنه أصبح يضارع الشعر فى التأثير فى وجدان القارىء ، بما وفّر له كتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها ومن حسن تلاؤمها فى الجَرْس . فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحيانًا بين حَرْف وحرف ، حتى يَأسِر العقول والألباب . وكان أكثرَ من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسْرِ تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه فى بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفًا . وتَحْمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهال ، يقول[1] :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرِّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك فى إقبال الزمان ، وبَسَطَ بِيُمْنِ خلافتك الآمال ، وخصّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشَدَّ بك أزْرَ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُغْدِقِ (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهايةُ ضارب المثل ، وعمّر ببلائك الإسلام ، وفسح لك فى القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسَرْبلك (ألبسك) العافية ، وردّاك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقًا ، وترفرف نحوك طربًا وشوقًا » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفى رأينا أنه لم يعش طويلا فى عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً فى العصر العباسى الأول أن يتهادوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر فى هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندى الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفًا ويكتب معه[2] :

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« الحمد لله الذى خصَّك بمنافع ما أُهْدِىَ إليك ، فجعلك تهتزُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتألِّق اللامع) وتصون عِرْضَك بالإرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خدِّك المَشُوف (المجلو) كما يَشِفّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْقل شرفك بالعطيَّات ، كما تُصْقَلُ مُتون المَشْرَفِيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومَرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتبًا رِساليًّا (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتَّابى (وكان شاعراً كاتبا) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتَّاب ضعيف جدًّا ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين »[1] . وقد أُثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحًا له معدِّدا فضائله ، وفيها يقول[2] :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائْتَمَنَكَ على رعيَّته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصْدَر عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشريفًا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زدْت نفسك عن الدنيا عُزُوفًا وتنزيها ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفةً وعليها حَدَبًا ، لا يُخْرجك فرْطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناةُ كبار الأمور عن تفقد صغارها . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافَّة الرعية — إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة — مُثْنون عليك بحسن السيرة ، ويُمْن النقيبة » .

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقدرة أبى على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقدكان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفًا حسنًا ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يَجْرِ فى هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق فى مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معانى سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حَدِبٌ عليه ، وحقُّ كل فَرْدٍ فوق حق الخليفة نفسه ، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، فى تواضع لا يسفُّ به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقا وإن كان عدوًّا ، ولا يَسُرُّ مبطلا وإن كان صديقًا . والرعية جميعها تحبه وتُثْنى عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل فى العتاب أو بعبارة أدق فى الهجاء كتب بها إلى أبى العيناء منافسه فى منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول[1] :

« من أبى على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبلغ فى التحذير ، المُعْذِرِ فى النكير ، إلى أبى العَيْناء الضَّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالتعبير ، سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خَلْقه ، على ما هدانى من دينه ، وعرَّفنى من حقه ، وامتنَّ علىَّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حَسَبُه ، الرَّدىء مذهبه ، الدَّنِىءُ مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذىء لسانه ، المُبْتَلَى به إخوانه . . . قد صَيَّرْتَ القِحة (الوقاحة) جُنَّة (وقاية) وشَتْم الأعراض سُنَّة . . . صديقُك على وَجَلٍ منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تُعْذره ، وإن استنظرك لم تُنْظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السنُّ إلا نقصًا ، ولا يفيدك الغِنى إلا حرصًا . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك فى ماله حَرَبْتَه (سلبته) ، ومن منعك بعذر واضح سَبَبْتَهُ . . . ومن أكرمك أهنته وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولِنْتَ فى يديه . . . إرْثُك عن أبيك السعاية ، ونقلُ الأخبار والوشاية » .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/١٥٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرسالة كلها — على هذا النحو — هجاء وإقذاع فى الهجاء ، وقد استهلها لممّحًا إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجًا له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه فى حسبه وفى مذهبه ومكسبه واصفًا له بالخسّة والدناءة ، وأنه لا يحترم صديقًا مهما أكرمه ، مع الشّحّ والتعرض للناس بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له فى نهاية رسالته : « قد مِلْتُ إلى السجع على علمى بخساسة حظه وركاكة معانيه وألفظه ، إذ كنت تَلْوى به لسانك ، وتَثْنى إليه عِنانك ، قطعًا لحجتك ، وإزاحة لعلتك ». وكان أبو العيناء على شاكلة أبى على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد فى رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرسًا غير فاره ، وفيها يقول[1] :

« أُعلم الوزير — أيده الله — أن أبا على محمداً أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُرْكبنى فأرجلنى ، أمر لى بفرس كالقضيب اليابس عَجَفًا (هزالا) وكالعاشق المهجور دَنَفًا (سقمًا). قد أذكر الرواةَ عُرْوة العُذْرِيَّ ، والمجنون العامرى ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار . . . وإنما أُتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخْبَثَ وأنْزَر (قَلَّلَ) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتّاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر فى بعض الرسائل ، فإن لأبى العيناء نفسه رسائل أخرى فى الاستمناح[2] وطلب النوال وفى الشكر[3] ، يكتفى فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبى العيناء وأبى على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »[4] ، وتدور له فى الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة فى الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة[5] :

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .
(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .
(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .
(٤) الفهرست ص ١٨٥ .
(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر الآداب ٣ / ٣٨٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« نَبَتْ بى عنك غِرَّة (غفلة) الحَداثة ، فردَّتنى إليك التجربة ، وباعدتْنى عنك الثقة بالأيام ، فأدنتنى إليك الضرورة ثقةً بإسراعك إلىَّ ، وإن أبطأتُ عنك ، وبقبولك لعذرى وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانت ذنوبى قد سَدَّت مسالك الصَّفح عنى ، فراجع فىَّ مجدك وسؤددك . وإنى لا أعرف موقفًا أذلَّ من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رضاك » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صَبَّتها فى قالبها يَدٌ صَناع وحقًّا لم يُحسِنِ الرسالة بالسجع ، ولكن العبارات كلها كأنها حلى مختارة ، سواء فى اصطفاء الألفاظ ، أو فى توشيتها بألوان البديع ، فالغرة أمام التجربة ، والبعد أمام الدنو ، والسرعة أمام البطء . ثم تتعاقب الاستعارات والصور ، فالذنوب قد سَدَّت بحجاب غليظ دروبَ الصفح ومسالكه ، وهو يتوسل أن يراجع فيه مجده وسؤدده . ثم يأتى التلطف وقبول الذل وكأنه يقبله من حبيب . وله رسالة جيدة فى تعزية سليمان بن وهب عن أخيه الحسن حين لبَّى نداء ربه ، ونكتفى منها بهذه الفقرة[1] :

« إن الرَّمَضَ (حرقة الغيظ) والهلع إنما يكونان للمصيبة الخاصة التى لا تَعْدُو صاحبها ، ولا يجد مُسْعداً (معينًا) عليها ، ولا شريكًا فيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشِج (المشتبك) رَحِمًا بك والبعيد نسبًا منك ، وجمع فى ثِقْلِ مَحْملها وألم فَجْعها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبال وحشة ، ومنطوٍ على دخيل حزن ، وناظرٌ من أعقابها فى منظر وَعْر ، فجميعهم فيها مشترك ، وأنت بالتعزّى حقيقٌ قَمِينٌ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، ألفاظها محكمة ، ويجرى فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرَّصْف الدقيق للعبارات ، فالنسج متين ، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان . ومن الكتَّاب البلغاء أحمد بن سليمان بن وهب ، وهو من بيت كتابة ، كان أبوه وعمه الحسن من البلغاء المفوهين ، وله فى الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه ، وفيها يقول[2] :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك فى الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للواثق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَثٌ حَداك إلى أخيك الأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفق ، والصديق الوَصول ، والمشارك فى المكروه والمحبوب ، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرّفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يومٍ يأتى علىّ إلا وثقتى بك تزداد استحكامًا ، واعتمادى عليك يزداد تأكداً والتئامًا ... وأعيذك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزه الذى لا يُرام ، وكَنَفه الذى لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنّ والإنعام » .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعًا متكلفًا ، مما يدل على أنه حذق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلا طبيعيًّا ، لاعوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستو متناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا فى كتابة النثر والشعر أحمد بن أبى طاهر طيفور ، ومرَّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة فى شكر على بن يحيى المنجم على بِرٍّ واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو[1] :

« إن أحقّ معروف بأن يُشْكَرَ ، وبَد بارَّة بأن لا تُكْفَر ، وأحق واجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبِرٌّ بأن يُجازَى معروفك — أعزَّك الله — عندى ، ويدك قِبَلى ، وحقك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكره ونَشْره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئًا ، وتشفع ما تقدّم معقبًا ، وتُحْسن رَبَّ ما أسْديته متفضلا ، لا أخلاك الله من بِرّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال » .

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثير الهجاء للكُتّاب، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه، وممن هجاهم وأقذع فى هجائهم ابن ثوابة وابن مكرم ، ومن قوله فى رسالة كتب بها إلى أبى على البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه[1] :

« المَقْلِىّ المذمَّم ، المهين ابن مكرَّم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضيع فى خلائقه ، العاتى على خالقه . . . عدوُّه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَن استخفَّ به أكرمه . ومَنْ وصله صَرَمه (قطعه) . . . يحلف ليحنث ، ويعهد لينكث ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته فى ذم الصالحين ، وطُرَفُهُ قَذْف المُحْصَنات ، وسَعْيه فى كسب السيئات » .

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة فى التهانى والتعازى والاعتذار والشوق والفراق وفى السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولى فى ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقلُّ السجع فى رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى فى الرسالة التالية ، وهى فى تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد فى يوم عيد[2] :

« أخرتْنى العلة عن الوزير — أعزَّه الله — فحضرتُ بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ، ويَعْمُرَ ما أخلته العوائق منى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ما توسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه فى مسرَّة نَقْصًا ، ولا يقطع عنه مَزِيداً ، ويجعلنى من كل سوءٍ فداءه ، ويصرف عيون الغِيرَ (حوادث الدهر) عنه وعن حَظِّى منه » .

والرسالة أدْعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل فى الشوق يقول فيه : « إنى لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكلِّ لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسَقْيًا لدهر كان موسِمًا

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٥٠ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جمع الله شمل سروري بك ، وعسَّر بقائي بالنظر إليك »[١] . ومن ذلك فصل في شفاعة : « موصل كتابي فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِها (تهزلها) بِمَطْلِكَ ، وأسْرِعْ ردَّها بسابق إنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »[٢] ، ولا ريب في أنه كان يسجع أحياناً ففي بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »[٣] وفي فصل آخر : « تولَّى الله عني مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصحب بقاءك عِزًّا يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع مِنَنه عندك ، وزاد في نعمك وإن عظمتْ ، وبلَّغك آمالك وإن انفسحتْ »[٤] . وله في وصف الكتاب والقلم[٥] :

« الكتاب والج الأبواب ، جريء على الحجَّاب ، مُفْهِم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يَشْخَصُ (يحضر) المشتاق ، ومنه يُدَاوَى الفراق . والقلم مجهزٌ لجيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضيء ، وكأنه يقبِّل بساط سلطان ، أو يفتح نُوَّار بُسْتان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخَّص الكتاب وجسَّمه في صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التي يكتبها في صور بديعة :

وكان الكتَّاب يكثرون من الدعوة للزيارة واقضاء بعض الوقت في اللهو وسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهاني في كل مناسبة في الأعياد وفي الزواج وفي إنجاب الأولاد وفي ختانهم ، وفي الحج وقضاء مناسكه ، وفي وصف الطبيعة شتاء وفي الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع في الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعْنَى به ، وهي عناية جعلته يعمُّ في تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبي على

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٩٢ .
(٢) الصولي ص ٢٩٠ .
(٣) الصولي ص ٢٩١ .
(٤) الصولي ص ٢٩٤ .
(٥) الصولي ص ٢٩٢ وزهر الآداب ٢ /٣٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البصير وأبى العيناء فى بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا فى بعض رسائل ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيّأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التى ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذى وقفنا عنده فى موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج فى الكتابة : فى التهانى والتعازى والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً فى كتابة الرسائل الديوانية ، ففى كل ذلك درر من السجع والصور تُحفَظ وتصبح مادة للكتّاب ، تُعينهم فى كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمذانى نذيراً بجمود النثر العربى وأن يصبح صيغاً برّاقة ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع فى الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تَلَوْه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامرّاء ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين : العاصمة القديمة سامرّاء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهى تمضى على هذه الصورة[١] :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض[٢] الدهر سُكّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحَبْل الرّجاء فيها يَقْصر ، فكأن عُمْرانها يُطْوَى وكأن خرابها يُنْشَرُ ، وقد وُكِّلَتْ إلى الهجر نواحيها ، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزّقتْ بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جوار ، فالظّاعن منها ممحوُّ الأثر ، والمقيم بها على طَرَف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالُها تصف

---

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٣ .

(٢) أنهض هنا : بعث على الرحيل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنّة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارُها ، عليهم أرْدِيَةُ السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زَبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْع (الغبار) سُرَادقها ، قد نُشِرَتْ فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف البرق ، وأمسكها تَحْجيل كأنه أسورة اللجَيْن ، وقُرِّطَتْ عُذُراً[1] كالشنوف ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صُبَّ عليه وقار الصبر ، وهَبَّت له روائح النصر ، يصرِّفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب جلالا ... قبل أن تَخُبَّ (تعدو) مطايا الغِيرَ ، وتُسْفِر وجوهُ الحذر ، وما زال الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقًا بالعجائب ، يُؤْمَنُ يومه ، ويَغْدُر رُغْدُه . على أنها — وإن جُفِيَتْ — معشوقة السكنى ، حبيبة المَثْوَى (المنزل) كوكبها يقظان ، وجَوّها عُرْيان (صحو) وحَصْباؤها جَوْهر ، ونسيمها معطّر ، وترابها مِسْكٌ أذْفر (ذكىّ) ويومها غداةٌ (لطيف الطقس) وليلها سَحَرٌ ، وطعامها هَنِيءٌ ، وشرابها مَرِيءٌ ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم الوسِخَة السماء ، الوَمِدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خَبَار (لينة) وحيطانها نزوز (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تَمُّوز (يولية) فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرِق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحَلّ خِناقه (كيسه) وحيطانهم خِصاص (أكواخ) وبيوتهم أقفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم » .

والسجع زاخر فى الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع فى عصره أسلوب دُرَر السجع ولآلئه التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتى كانت تروقهم إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

---

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سال على خد الفرس. الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجي للمعانى لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصْفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عنى شيئًا ، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها »[1] ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجور اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَوًّا الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والخراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطىّ ، والباقى يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتحجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط فى آذانها ، والحصباء جوهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائمًا يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الرَّكْب ، ركب العناية بالوشى . ويُطِلّ القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطْوَى فيه من زخارف البديع .

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٢٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner